الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

وقل رب زدني علماً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

(العلق : ١ـ ٥)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(النحل : ٧٨)

نظام الإسلام العقائدي

في العصر الحديث

الأستاذ محمد المبارك

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م

إعادة طبع

١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

نشر وتوزيع

الدار العالمية للكتاب الإسلامي

نشر وتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي بجميع لغة

الإدارة العامة ص.ب ٥٥١٩٥ ـ الرياض ١١٥٣٤

هاتف ٤٦٥٠٨١٨ ـ ٤١٤٧٢١٣ ـ فاكس ٤٦٣٣٤٨٩

المكتبات الرياض ٤٦٢٩٣٤٧ ـ ١ / جدة ٦٨٧٣٧٥٢ ـ ٢ / الخبر ٨٩١٥٨٢١ ـ ٣

INTERNATIONAL ISLAMIC PUBLISHING HOUSE

I. I. P. H.

Publisher and Distributer of Islamic Books and Tapes in 70 Languages

HEAD OFFICE P.O Box 55195 Riyadh 11534 Saudi Arabia

Tel (966 1) 4650818 4647214 Fax 4633488

BOOK SHOPS Riyadh 4629347/Jeddah2 6873752/Khobar 8945821

المؤلف في سطور
الأستاذ محمد المبارك

● الداعية الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ أحد أعلام الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي البارزين في بلاد الشام والعالم الإسلامي كله. ولد في عام ١٩١٤ في أسرة معروفة بالعلم والتقوى والصلاح في بيت مجاور للمسجد الأموي وتتلمذ على يد الشيخ محمد بدر الدين الحسني ودرس اللغة العربية على يد والده الشيخ عبد القادر المبارك والتحق بمدرسة الآداب العليا بدمشق ودرس الحقوق وتخرج فيها عام ١٩٣٥. وسافر إلى باريس لدراسة الأدب العربي في جامعة السوربون وحصل فيها على ليسانس في الآداب ودبلوم علم الاجتماع.

● وبعد عودته نذر نفسه للدعوة إلى الله حتى يرجع المسلمون إلى التمسك بدينهم ويقودوا العالم كما كانوا من

قبل. وعمل مدرساً للعلوم العربية والأخلاق والمنطق. وفي عام ١٩٤٥ عين عضواً في اللجنة الفنية والتربوية لوضع الخطط والمناهج التربوية والتعليمية. كما شارك في وضع المناهج والمواد الدراسية لكلية الشريعة التي أنشئت في سورية عام ١٩٥٤ ودرس مادة فقه اللغة ونظام العقيدة وعلم الاجتماع، وتولى عمادة الكلية في الفترة من ١٩٦٤ وحتى ١٩٦٦... وانطلق بعدها يجوب الجامعات العربية فعمل أستاذاً مشاركاً في التخطيط ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان، ثم أستاذاً ورئيساً لقسم التربية والدراسات الإسلامية بقسم الشريعة في كلية الشريعة بمكة المكرمة. ثم أستاذاً باحثاً في جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

● وللأستاذ المبارك عدد كبير من المؤلفات والدراسات في العقيدة والعبادة والاقتصاد والفقه بالإضافة لعدد من البحوث العلمية. ومن أشهر مؤلفاته: فقه اللغة، فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، والدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية، ومجموعة: نظام الإسلام، والمجتمع الإسلامي المعاصر، والعقيدة في القرآن الكريم، وجذور الأزمة في

المجتمع العربي الإسلامي، وذاتية الإسلام، وعلم الاجتماع الإسلامي.

مقدمة

كيف نواجه ـ نحن المسلمين ـ النظم العقائدية الوافدة المتداعية إلى غزونا، بنظام عقائدي إسلامي؟! كيف نصوغ مبادىء الإسلام الأساسية بحيث تنظم جماعة المسلمين، وتكون منهم أمة، وتقيم بهم ـ على أساس هذا النظام ـ دولة، لتجتمع لهم بذلك عقيدة وأمة ودولة على نسق واحد، ينظم عقدها نظام واحد؟ على أن تكون هذه الصياغة مناسبة لأساليب التفكير المعاصرة، وتتمتع بقدرة على الحوار والمواجهة للنظم الأخرى، وعلى مخاطبة الناس جميعاً في عصرنا هذا، والانفتاح على الإنسانية بأفقها الواسع.

لا بد لبلوغ هذه الغاية من العودة إلى الوراء لرسم الخط البياني الذي أوصلنا إلى موقعنا الحالي لنتبينه بوضوح ونعرف مركز انطلاقنا ثم نعود إلى هدفنا من صياغة نظام الإسلام العقائدي.

الواقع والمصير

● مر الإسلام منذ بدايته وقبل مرحلة الغزو الأخيرة هذه بمرحلتين:

أولاهما: كانت مرحلة ازدهار وامتداد وقوة استمرت متصاعدة أربعة قرون، ثم بقيت بحكم الاستمرار محتفظة بقوتها عدة قرون أخرى. وتتسم هذه المرحلة بقوة الإيمان والوعي العميق وازدهار العلوم كلها الدينية واللغوية والعلوم الطبيعية والرياضية وتقدمها، وبالنشاط الاقتصادي وفتوح البلدان وتحريرها من الاستبداد والظلم، وبقوة الدولة الإسلامية وارتفاع مستواها ومؤسساتها الحضارية.

وثانيتهما: مرحلة خسارة وضعف وجمود. وقد برزت هذه الصفات بوجه خاص وبوضوح بعد القرن التاسع الهجري. وتتسم هذه المرحلة بالركود العلمي وغلبة النقل والتقليد وفقدان الإبداع، وتوقف العلوم الرياضية والطبيعية،

بل إغفالها وتراجعها وركود الحركة الاقتصادية والاهتمام بالجزئيات تفكيراً وعملاً، بدلاً من الاهتمام بأهداف الإسلام العامة ومقاصده وكلياته، وذلك مما أضعف الوعي الإسلامي العام وجعله ضامراً متقلصاً، وتتسم كذلك بنوع من الاستسلام والسلبية.

وكل ذلك حصل - في رأينا - بسبب ما طرأ من تغيير على المفاهيم الإسلامية الأساسية، وانحراف عن الاتجاه الإسلامي الأصيل، وتغيير في سلم الأولويات كما رتبها الإسلام في كتابه وسنته، بحيث أصبح الاهتمام الكبير بالأمور الثانوية والإغفال الشديد للأمور التي اعتبرها الإسلام في الدرجة الأولى من الأهمية. يضاف إلى هذا ما أدخل في المحيط الإسلامي من أفكار خارجية أقحمت في الإسلام مباشرة أو بطريق التأويل، وما ابتدع في مجال العقيدة والعبادات، مما أخل بعقيدة التوحيد التي هي محور الإسلام وجوهره وسبب قوته.

إن ما طرأ من تغيير كبير وانحراف وتشويه في مفهوم القضاء والقدر واعتباره استسلاماً للواقع، والتوكل واعتباره تركاً للأسباب وإهمالاً، وللزهد واعتباره تركاً للعمل

والكسب، وللعبادة وحصرها في الشعائر والمناسك دون سائر الأعمال وإقامتها مقام الأسباب لبلوغ الأهداف واعتبار أشكالها وأعدادها بدلاً من روحها ومقاصدها. إن هذه التغييرات أورثت ضعفاً عسكرياً وسياسياً واقتصادياً مالياً وعلمياً.

وإن الاهتمام بجزئيات العبادة والسنن السلوكية والآداب الشخصية مع إغفال الاهتمام بأمر المسلمين العام وبالجهاد وبمكافحة الظلم ومعالجة الفقر وبموالاة المؤمنين والبيعة لإمام مسلم، إن ذلك كله قلب الموازين وأدى إلى تخلف وضعف.

إن هذه الانحرافات وما أدت إليه من نتائج الضعف والجمود والتخلف والانقسام والعصبيات المذهبية والمحلية بلغت قمتها في القرون الأربعة الأخيرة وإن كانت بذورها قديمة وبداياتها ترجع إلى القرن الثالث للهجرة، ولكنها ازدادت واشتدت بالتدرج حتى بلغت ما بلغت، ثم كانت مرحلة الغزو الأوربي.

ذلك أن أهل أوربا أخذوا عن المسلمين ـ ولاسيما

بطريق إسبانيا وصقلية ـ العلوم الطبيعية والرياضيات وشيئاً من الفلسفة وكان ذلك سبب نهضتهم، إذ ساروا بهذه العلوم بعد أخذها متقدمين إلى الأمام. ولكنهم لم يأخذوا من المسلمين العقيدة والمبادىء الخلقية بل بقوا على ما عندهم من المسيحية المغيرة عن أصلها تغييراً كبيراً ومن الفلسفة اليونانية. إن هذا المزيج الثلاثي غير المنسجم أدى إلى تقدم ونمو في الجانب المادي من الحضارة وضمور في الجانب الروحي والخلقي. فارتقت الآلات التي يستعملها الإنسان وتقدمت معرفته لعالم الطبيعة الحسي، ولكن الإنسان نفسه لم يتقدم خلقياً ولا كان لهذه الحضارة أهداف أخلاقية سامية على النطاق الإنساني. بل كان من أبرز سماتها إقصاء فكرة الإله والإيمان به فعلاً كما تفعل الديمقراطية أو إنكاراً كما تفعل الماركسية. ومعها كذلك إقصاء تعاليم النبوات إقصاءاً تاماً.

تم غزو أوربا للمسلمين أرضاً ومجتمعاً وحضارة فكان:

أ ـ الغزو العسكري السياسي الاقتصادي المباشر وهو احتلال للأرض وتول للحكم واستيلاء على الثروة.

ب ـ والغزو الفكري العقائدي الاجتماعي وهو احتلال للنفوس وللعقول والعادات، وحصل بالتدريج إذ تم بمراحل بدأت بشعور فريق من المسلمين بالنقص في أنفسهم ثم إعجابهم وفتنتهم بالغازي المستعمر القوي ثم كان النقل والتقليد والاتباع التدريجي له.

هذه هي الصورة الإجمالية للواقع رسمناها لننتقل منها إلى ما يجب عمله موضوعاً وخطة.

ومنها يبدو أن ثمة ثلاث عمليات لا بد من إجرائها للوصول إلى بناء جديد لكياننا وهي كما يلي:

العملية الأولى:

التحرر من آثار التشويه والانحراف الذي أصاب الإسلام في فهم المسلمين له، وكانت له نتائج سيئة لدى المسيئين لهذا الفهم، فسبب هذا التشويه الفكري النظري التخلف والضعف. وكانت نتائجه لدى فئة أخرى اتصلت بالثقافة الأوربية الحديثة الابتعاد عن الإسلام، وسوء الرأي فيه ظناً منهم أن هذا الإسلام المشوه الموروث هو الإسلام.

العملية الثانية:

التحرر من نقائص الحضارة الأوربية الحديثة، الفلسفية الفكرية والعملية السلوكية، مع استبقاء مكاسبها الصالحة النظرية والعملية.

إن الحضارة الغربية تشتمل على منجزات هي ولا شك. كسب للبشرية، وتتمة لأطوار حضاراتها المتعاقبة، وهي تقدم المعرفة العلمية في ميدان العلوم الطبيعية والرياضيات، والتقدم العملي في ميدان الصناعة ـ بالمعنى الواسع ـ مع التحفظ في أهداف استعمال هذه الصناعة؛ والتقدم التنظيمي والعمراني في حدود استعماله كذلك في أهداف الإنسان الخيرة.

ولكن هذه الحضارة، من جهة أخرى، أهدافها الوصول إلى الرفاهية وإشباع اللذات ووفرة الإنتاج لتحقيق ذلك. وطريقها إلى ذلك التنافس والصراع بين الأفراد والطبقات والشعوب والمعسكرات. وليس العقل والعلم والأخلاق إلا خداماً لهذه الأهداف وأعواناً للانتصارات في ذلك الصراع. وكل ما تحقق من أهداف إنسانية وأخلاقية إنما كان في

نطاق التوفيق بين المصالح الفردية أو الجماعية، وفي إطارات ضيقة لا على نطاق الإنسانية كلها. ولذلك تولدت من هذه الحضارات آفات ومآس، منها القلق والخوف وكثرة التشرد وسلب الحريات والاستغلال وظاهرات أخرى، وكلها مرتبطة بجعل الحصول على المادة ـ سلعاً مصنوعة أو مالاً ـ هي الهدف، بالنسبة للفرد أو الدولة وجمهور شعبها. وليس الهدف رقي الإنسان الخلقي والروحي وسمو نفسه وترقيتها وتهذيبها ولا تنمية عواطف الأخوة الإنسانية والبر والمحبة على النطاق الإنساني، بل تقلصت هذه العواطف حتى في نطاق الأسرة، فضلاً عن نطاق المجتمع القومي والإنساني العام.

وكانت النتيجة ارتفاع قيم إنسانية أصبحت هي العليا والمهيمنة على غيرها، مع أنها ينبغي أن تكون في موقعها الذي تستحقه بالنسبة إلى غيرها لا أن تكون العليا المهيمنة فتحل محل الإله. وقد عدد المفكر الإنكليزي الكبير المعاصر (الدوس هكسلي) عدداً من هذه القيم المؤلهة مما سماه أوثان العصر الحديث، كاللذة والوطن والقومية والجماهير والشعب والعقل والعلم...

إن نقائض هذه الحضارة ـ بلونيها الديمقراطي والاشتراكي ـ بل أزمتها وإخفاقها في تحقيق سعادة الإنسان عبر عنه بقوة عدد من كبار مفكري الغرب في القرن العشرين مثل شبنجار والدوس هكسلي والكسيس كارليل وكونس ويلسن وغيرهم.

إن التحرر من غزو الحضارة الأوربية الحديثة لا ينبغي أن يفهم منه إعراضنا عن الأخذ بمكاسبها العلمية ـ في ميدان الطبيعة والصناعة ـ فذلك واجب فوري. كما أنه لا ينافي التعاون ـ في إطار المصلحة المتبادلة ـ مع أصحاب هذه الحضارة، بل التعاون الإنساني العام في نطاق عقيدتنا وقيمنا الأخلاقية الإنسانية.

وإنما التحرر من فلسفتها العقائدية البتراء الناقصة التي هي سبب بلائها وأزماتها، ومن القواعد السلوكية ـ ولا أقول القيم الأخلاقية ـ المنبثقة عنها، ومن الذوبان الخطر في فلسفتها هذه وثقافتها، ومن التبعية لها في مجال السياسة.

الخطورة في كل ما يعبر وينتج عن هذه التبعية كالمعاهدات الثقافية ـ من بعض جوانبها ـ وكاللقاءات

الحزبية بيننا وبين أصحاب تلك الثقافة والحضارة التي لا ينتج عنها ـ ما دمنا في حالة الضعف السياسي والفكري والنفسي بالنسبة إليهم ـ إلا امتداد نفوذهم العقائدي وتسلطهم الفكري وازدياد تأثر أحزابنا بفلسفتهم ومذاهبهم العقائدية. وليس ذلك من الحوار في شيء.

إن هاتين العمليتين: التحرر من الانحراف والتشويه الذي وقع فيه المسلمون خلال عصور الانحطاط والتردي، ما بين القرن الخامس للهجرة حيث بدأ بدرجة خفيفة حتى بداية القرن الرابع عشر، والتحرر من التبعية للفكر الغربي في مفاهيمه وأفكاره ونظمه، إنما تتم هاتان العمليتان بالعملية الثالثة الإيجابية التي هي:

إحلال الإسلام ـ باعتباره نظاماً عقائدياً كاملاً ـ أي بعقيدته ونظمه المتفرعة عنها محل الثقافتين: ثقافة العصور الوسطى الإسلامية المتجمدة والمشتملة على انحرافات، وثقافة الغرب القائمة على الفلسفة المادية والأهداف المادية.

إن هذه العملية ليست سطحية تقتصر على إقامة الإسلام شعائر عبادات عند الجمهور الشعبي ومراسم ظاهرية